موقف ابن عابدين الفقيه

من الصّـوفية والتصـوّف

Mawqif Ibn Abideen Min al-Sufiyya wa’t-Tassawwuf

***

دراسة تحليلية وانتقادية حول مضمون رسالة
»سلّ الحُسام الهندي في نُصرة مولانا خالد النقشبندي«
لمؤلّفها: الشيخ محمد أمين المعروف بابن عابدين

***

كتبه:
فريد الدين بن صلاح بن عبد الله بن محمد الهاشمي
Feriduddin AYDIN

البريد الألكتروني للشيخ فريد الدين
ferid@maktoob.com

أسطنبول – 1993م. الطبعة النانية -2003م.
Süleymaniye Vakfı İlmî araştırmalar Merkezi Yayınları

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد،

فهذه دراسةٌ تحليليّةٌ حول مضمون رسالة سلِّ الحُسامِ الهندي في نصرة مولانا خالد النّقشبندي، لمؤلّفها: الشيخ محمد أمين المعروف بابن عابدين.[1] فقمتُ بهذه الدّراسةِ بناءً على طلبٍ من العالم الفاضل الفقيه الكامل الدكتور الشيخ عبد العزيز أبي محمد سلجوق بَايِنْدِرْ، رئيسِ هيئة الفتوى بدار الإفْتاءِ الشَّريفةِ بمدينة إسطنبول.

فطالعتُ هذه الرسالةَ بإلْمَامٍ واهتمام. فهي تتضمّنُ مقالةً ردِّيَّةً كَتَبَهَا الفقيه محمد أمين المعروف بابن عابدين؛ ردَّ فيها على تُهَمٍ قُصِدَ بِها الشّيخ خالدٌ البغداديُّ النقشبنديُّ. (1778-1826م.). فنقلتُ مقاطِعَ هامّةً من هذه الرّسالةِ وأتْبَعْتُ كُلَّ فقرةٍ بملاحظاتٍ مناسبةٍ، ثم اختتمتُ كلامي بالحُكمِ النّهائِيِّ

---

[1] **ابن عابدين: محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي (1784-1836). فقيه الدّيار الشّاميةِ وإمام الحنفيةِ في عصرهِ. مولده ووفاته في دمشق. له (ردّ المحتار على درّ المختار)، خمس مجلّدات، يُعرَف بحاشية ابن عابدين. و(رفع الأنظار عما أورده الحلبيّ على الدر المختار)، و(العقود الدّرية في تنقيح الفتاوي الحامدية)، جزْآن؛ و(نسمات الأسحار على شرح المنار)، أصول؛ وحاشية على المطوّل، في البلاغة؛ والرّحيق المختوم في الفرائض؛ وحواشي على تفسير البيضاوي، التزم فيها أن لا يذكر شيئًا ذكره المفسّرون؛ ومجموع رسائل، مجلّدان؛ وهي 32 رسالة، وعقود اللّآلي (الأعلام-خير الدين الزركلي)**

في مضمون هذه الرسـالةِ علـى سـبيل الإجمـال وفـي ضوء الكتاب والسّنةِ.

أسأل الله تعالى أن يجعلها لـوجهه الكريـمِ، وأن يُرشِـدَ بِهَا كُلَّ مَنْ يبحث عن الحقيقة وهو يهدي السّبيل.

فأقول مستعينًا بـالله تعـالى؛ قـال ابـنُ عابـدين: »فَـأَلَّفَ بَعْضُـهُمْ رِسَـالَةً...إلـخ.«. (ص/2). ولـم يـذكر اسم المؤلِّفِ في البداية على سبيل الاحتقـار، ثـم قـال مشيرًا إلـى الشـيخ خالـد البغـداديِّ: »الإمـام الشـهير، والعـارف الكـبير...إلـخ.«. وبـالغ فـي تعظيمـه إلى أن قـال: »وهـو الإمـام الأوحـدُ، والْعَلَـمُ المفـردُ، والهمـامُ الماجدُ، حضرة سـيّدي الشـيخ خالـد...إلـخ.«. وأضـاف إلى ذلك ما لا يستسيغُهُ الفقهاءُ ولا يستحسـنه العلمـاءُ ممّا يُزَعْزِعُ ثقة المسـلم المثقّـف أن يجعلـه فـي عـداد الفضلاءِ العدول.

قـال: »وَاشْـتَهَرَ بـه الطّريقـةُ النّقشـبنديّةُ الواضـحةُ الجليّـةُ...إلـخ.« (ص/3)، فـإظهر بمثـل هـذا الإمتـداح انحيـازه إلـى طائفـةٍ مـن الفِـرَقِ الْباطنيـةِ (وهـي النقشبنديةُ) فـأظهَرَ بـذلِكَ أنّـه غيـرُ مُحَايِـدٍ علـى أقـلِّ تَقْديرٍ. بل هو متعصّبٌ لأهل الطُّرُقِ الصُّـوفيَّةِ ومخـالفٌ لموقف علماء الإسلامِ من الباطنيةِ وأباطيلهم. وفضـلاً عن هذا، فقد أطنب ابن عابدين بمدائـح متواصـلة لهـذا الشيخ تعظيمًا وتوقيرًا له؛ ولم يقف عند هذا الحـدِّ، بـل ازْدَادَ مجاملةً، فتصنّع بمدح سـلطان زمـانه تَزلُّفًـا إليـه دونما قرينةٍ، وتكلّـفَ فـي مـداهنته لـه بعبـاراتٍ خلّابـةٍ، وخطاباتٍ برّاقةٍ تَمَلّـقَ فيهَـا مـن غيـر مناسـبةٍ كقـوله: »أدام الله طلعته السّعيدة في أفق الزّمان كوكبًا منيرًا،

وخلّـد ذَا لآراء السّـديدة فـي بـاهي مملكتـه عضـدًا ووزيرًا...إلخ.» فخالف بهذه اللّهجة المتصنّعة الموقِـفَ المستنكفَ المتأنّفَ لعلماء الإسلام مـن أهـل السّـلطةِ والمناصِبِ. ثمّ تابع ابن عابدين كلامَـهُ بأسـلوب العـوامّ يـذبُّ عـن هـذا الشّـيخ إلـى أن اسـتدلَّ بشـهادةِ مفـتي دمشـق السّـيّد حسـين أفنـدي، وَأسـهب فـي مـدحه باسـتعاراتٍ وتعـبيراتٍ مجازيـةٍ اسـتعرض فيهـا بلاغتَـهُ وباعَهُ الطّويـلَ فـي العلـوم العربيـة وآدابهـا وقواعـدها على غرار ملالي[2] الأكرادِ، حتّى غدا كأنّه امتدح نفسَهُ بمدح غيره، وكفى بذلك ملامـة أن يقـال: »إنَّ هـذا قـد أثنى على نفسهِ. «لأنه ما ادّعى أحدٌ علمًا أو قصد ذلـك بطريقـة مـاّ إلاَّ رُمِـيَ بالجهـل. ثـمّ قـال ابـن عابـدين: »فبادرتُ إلى التّوجّهِ والإقبال علـى الطّاعـةِ والامتثـال لسـؤالهِ (أي المفـتي)، بلا إهمـالٍ ولا إمهـال، فجمعـتُ هذه الأوراق...« إلى أن قال: »شَهِدَتْ بِبَـرَاءَةِ سَـاحَتِهِ المحتَرَمَةِ (الضمير راجع إلى الشيخ خالـد)، عامّـةُ أهـل البلادِ مـن النّـاس... منهـم مفـتي الأنـام فـي دمشـق الشَّام، السّيد حسين أفندي...إلخ.« وتفنّن ابن عابـدين بعد ذلك في صياغة مـدح هـذا المفـتي، ثـمّ انتقـل إلـى سرد ما هو بصدده، فقال: »اعْلَمْ أنّـي أريـد أن أكشـفَ لك الغطا، وأنبِّهَكَ على بعضِ ما وقع فـي تلـك الرسـالة من الْخَطَا، لأَلاَّ تَزِلَّ بِكَ الْخُطَى (بضمّ الخـاء المعجمـة، وهي جَمعُ خُطْوَةٍ)،

كُلُّ هَذِهِ الصِّيَغُ المسجَّعَةُ تدلّ على اهتمام ابـن عابـدين بالقشرِ وليـس بـاللُّبِّ. إذْ نشـاهد مـن خلال كلامـه أنّـه مفتتنٌ بزخارف القول ليسحر بها العقول وهـو منهمـك

[2] مَلاَلِي: جمعُ مَلاَّ، وهي صفةٌ تُطْلَقُ علىَ رجال الدينِ في اللغة الكردية والفارسيةِ بمعنى الشّيخ في اللغة العربية.

في الدّفاع عــن خالــد البغــداديّ لســببٍ غيــرِ شــديدٍ، إذ ينقــل مــن كلامِ الشــخص الّــذي نــال مــن خالــد، فَعَــادَ يُهَاجَمُهُ بقولِهِ:

قال ذلك الزاعم المزاعم: (كلاهما اسم فاعل من أصل واحد، والموالاة دلالةٌ على التّشْـديد). ومــن جملــة مــا نقل ابنُ عابدين من كلام هذا الشخصِ الّذي لَــمْ يُسَــمِّهِ في البداية، يفيد: أنّ الشيخَ خالدًا يقوم بتسـخير الجــنِّ، ويستعين بالأرواح الأرضية الخبيثة، ويدّعي علــمَ الغيــبِ عن إخْبار الجانِّ له، ويدّعي أنّــه قَتَــلَ وَرَبَــطَ كــثيرًا مــن العفاريت والجانِّ، كلّ ذلك بإقراره مع أنّه يدّعي الولايةَ والإرشَادَ في الوقتِ نَفْسِهِ.

ثمّ يستطردُ هــذا الشــخصُ قــائلاً: »فلمّــا كــان السُّــؤَالُ متعلِّقًا برجُلٍ مُشَــخَّصٍ مُعَيَّــنٍ مــذكورٍ باســمه، اقتضــى التوقّف والتفحّص عن أحواله ليتحقّق عنــدي جميــعُ مــا في السّؤال...«

فيدلّ كلامُ (هذا الشخص المجهولِ) الّذي استرسلَ فيه أنّه قد فَحَصَ وفتّشَ الأمرَ وَبَحَثَ، حتّى شــهدتْ جماعــةٌ بكلِّ ما قد سَجّله من أمر هذا الشيخِ، وذكر أسماء بعض المعروفين من هؤلاء الشهود، وهــم: الشــيخ إســماعيل النقشــبندي، والشــيخ أحمــد علــي آغــازاده الكــردي، والشريف أفندي الدياربكري.

كما أنّه بعد وصفِهِ أتباعَ الشيخ خالد بـ (الفرقة الخالديــة الضَّالة المضلّة)، أضاف قائِلاً: »بِأنّه لم يُنْكِرْ ولم يَكْتُــمْ أحدٌ من هؤُلاءِ ما نُقِلَ عن شيخهم؛ بل أقرّوا بِأنَّ الشــيخَ

خالدًا نفسهُ يفتخر بما يظهر منه من هذه الأمورِ ويعـدُّهُ من جُملَةِ خوارِقِهِ وعلامةِ ولايتِهِ«.

ثمّ لخّصَ هـذا الشـخص مقـالته فقـال: »فَثَبَـتَ عنـدي صدقُ ما في السؤالِ (...)، فبـادرتُ إلـى الجـواب (...) ومن كتم علمًا أُلجِمَ بِلجَـامٍ مـن النـار. فـأجبتُ متـوكّلاً على الله التوّاب قائلاً بِأنّه سـاحرٌ بِالإجمـاعِ. أي باتّفـاق المحقّقين من علماءِ المذاهب الأربعةِ«.

قال ابن عابدين: هذا نصّ كلامِهِ. (ص/5)

***

بعد هذه النقولات، بدأ ابن عابدين بمعاتبـة هـذا الرجـلِ ورميه بالتعسُّـفِ والمجانبـةِ عـن طريـق الإنصـافِ مـن جهةٍ، كمـا وقـف بجـانب الشـيخ خالـد موقـف المـدافع المتحمّسِ المفتدي من جهةٍ أخرى.

ومـن الغريـب أن ابـن عابـدين الفقيـه يعبّـر عـن فـائِقِ إعجابِهِ بالشيخ خالد الصّوفيِّ بقوله:

»فإنّ الّذي شاهدناه من حالتِهِ البديعةِ (...) إحْيَاؤُهُ بُقَـعَ الْمَسَـــاجِدِ والخَلَـــوَاتِ بإقامــــة الأذْكَـــارِ والأورادِ والصّلواتِ...إلخ.« كأنّ إحياء المساجد مقصـورةٌ علـى صـلوات الصـوفيةِ وأورادِهِـم وأذكـارهم الّـتي أكثرهـا مسـتحدثاتٌ وبِـدَعٌ وحفلاتٌ سـرِّيَّةٌ وحلقـاتٌ شـيطانيةٌ وشـطحاتٌ وخرافـاتٌ إسـرائيليةٌ وضـجيجٌ ومبالغـاتٌ وهذياناتٌ مستورثةٌ مـن البوذيـةِ والمانويـةِ والشـامانيةِ وغيرها مـن الأديـان الوثنيـةِ ومـن التيـارات الفلسـفيةِ.

كلّها مخالفةٌ لأذكار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وَمُنَافِيَةٌ لِمَجَالِسِهِ وأحوالِهِ ومناسكهِ ونوافله الطيِّبةِ الشّريفةِ الثابتةِ في سنّتِهِ النّبوية الطاهرةِ البيضاءِ. ثمّ يدّعي ابن عابدين: أنّ هذا الشيخَ كان له بعض مريدين قد طردهم فتطاولوا عليهِ بالفريةِ. (س/6)

أمّا مسألةُ الطردِ عند النقشبنديةِ، فليس أمرًا بسيطًا كما هو شائعٌ بين الناس. إذ أنّ الطردَ عند العامّةِ هو الإبعاد المحض. أي إذا طردتَ شخصًا من مكانٍ تكون قد أبْعَدْتَهُ من تلك الساحة بخلافِ ما قد اصطلحتْه الصوفيّةُ. أمّا عندهم، فالمريدُ إذا طرده الشيخُ أصبح مطرودًا ومبعودًا من باب اللهِ أيضًا، ومن باب رسوله... وهو شقيٌّ من أهل النار بعد ذلك على التأبيد. ويحرم عليه الجنّةُ وإن قضى جميعَ حيَاتهِ ساجدًا لله تائبًا إليهِ ومستغْفرًا؛ فلا ينفعه عملٌ صالحٌ حتىَّ يرضى عنه شيخُهُ (!) وهذَا أشبه ما يكون بقرارات بابا (الزعيم الروحيّ للمذهب الكاثوليكي) المعروفةِ بالأفوروز Aphorose ضدّ العصاة المسيحيّينَ

هذا، وليس من الأمور الخفية ما قد جرتْ من مشاحناتٍ مريرةٍ وصراعٍ متواصلٍ بين مشايخ الطرق الصوفيةِ في المنطقة الشرقية من تركيا بسبب اتّهام بعضهم البعض الآخر بأنّه مطرودٌ من قِبَلِ شيخه وأنّه لا يجوز الإنابة إليه. وكمثال على ذلك: فإنّ أسرة الشيخ محمد الكُفرويّ ألصَقَتْ هذه التُّهمةَ بالشيخ صبغة الله الحيزانيّ، فأفضى ذلك إلى عداءٍ شديدٍ بين هاتين الأسرتين حتّى كانت جماعاتٌ من مريدي الشيخ محمد الكُفرويّ تقصد من مدينة آغري AĞRI وتصل إلى

ضواحي مدينة بدليس BİTLİS [3] بشقّ الأنفس، حيث بها ضريح الشيخ صبغة الله وخليفته الشيخ عبد الرحمن التاغي المعروف بين معارضيه بالشيخ الطاغي، كانوا يقومون بمثل هذا السفر الذي يكلّفهم، لِمُجَرَّدِ أن يبصقوا على قبورهم وأن يصبّوا على أرواح المدفونين في هذهِ المقبرةِ جامَ غضبهم بأنواع السَّبِّ والشّتمِ واللّعن! وما زالت هذه العداوةُ قائمةً بين الأسرتين منذُ مائةٍ وخمسينَ عامًا. كلُّ ذلك أسفر عن ادّعاء الكُفروِيّينَ: أنّ الشيخَ صبغةَ اللهِ الحيزانيَّ اغتصب منصبَ الخلافةِ في الطريقة النقشبندية، وادّعى وراثةَ عبد الله الهكّاريّ من غير استحقاق، بينما كان هو في الحقيقة خليفةَ خليفتِهِ (الشيخ طه) الذي طرده من الطريقة، وأعلن أنّه دعيٌّ منتحلٌ كذّابٌ. ومعنى ذلك: أنّ الشيخ صبغةَ اللهِ الحيزانيَّ نازع الشيخ الكفرويَّ على منصبه في الطريقة وعلى رتبته في السلسلة النقشبندية بهذا الإدّعاء. تلك السلسلة التي يزعمون أنها متّصلة برسول الله صلّى الله عليه وسلّم(!)

---

[3] بدليس: ولايةٌ من المدنِ الواقعةِ في شرقي تركيا. وهي على مقربةٍ من بحيرةِ وَانْ Wan. عدد سكانها: 300843 حسب إحصائيّاتِ عام 1985م. يختلف أهلُ المدينةِ بين أكثريةٍ من الأكرادِ وقلّةٍ من الأتراك. إلاّ أنّ جميعَ العشائرِ القاطنةِ بضواحيها أكرادٌ ما عدا قبيلتين عربيتين، وهما: قبيلة شَيْبُو والقبيلةُ الْبَدرِيَّةُ. وما زال أبناء هاتين القبيلتين يتكلّمون باللغةِ العربيةِ، إلاّ أنّ لَهْجَتَهُمَا قد تأثّرت باللغةِ الكرديةِ إلى حدٍّ بعيدٍ، كما أنهم يجهلون القراءةَ والكتابةَ بالعربيةِ.
أمّا المسافةُ بين مدينتي بَدْلِيسْ وآغْرِي، فتُقَدّرُ بثلاثمائة كم. لقد كان لِمشَايخِ الطرق الصوفية تأثيرًا كبيرًا على سُكّانِ هذهِ المنطقةِ إلى السنين الأخيرة. وكان الصراع قائمًا بين أتباعهم بسبب المنافسة في طلب الشهرة والرياسة. إلاّ أنّ هذا التأثيرَ بدأ في التردّي منذ أن انتشرت النزعة القومية بين صفوف الجيل الصاعد للأكراد. كما قد اضطرّ كثيرٌ من هؤلاء الشيوخ بعد الأحداث الدامية الأخيرةِ أن يرحلوا إلى مناطقَ أخرى من الجهة الغربية للبلاد.

ويعود الخلاف بين هذين الخصمين إلى أنّ كلاهما كانا خليفتي الشيخ طه الهكّاري، والقصّة طويلة لا محلّ لها من الإعراب.

هكذا فإنّ مفهوم الطّردِ عند ابن عابدين العلاّمة الفقيه (!) لا يختلف عن مفهومه عند الباطنيةِ. ونستنتج من هذا: أنّ مَن كان قد طرده الشيخُ خالدٌ، فإنّه كان مطرودًا عند الله في اعتقاد ابن عابدين...

إنّ مسألةَ الطردِ عند المقشبنديّينَ، تتّضح بكلِّ ما فيها من دجلٍ وتضليلٍ عَبْرَ كلماتِ خالِدِ البغداديِّ بالذّات، في رسالةٍ بَعَثَهَا إلى مريديه في إسطنبول، يحذِّرُهُمْ فيها مخالطةَ رَجُلٍ طَرَدَهُ من طريقتِهِ،[4] وَيُهَدِّدُهُم أنّه سوفَ يقطعُ هِمَّتَهُ منهم، أي أنّه لن يَمُدَّهم بكراماتِهِ في الدنيا ولا بشفاعَتِهِ عند اللهِ يومَ القيامةِ إنْ خالطوهُ واتَّبَعوُهُ، كما يخبِرُهُم بأنّ ذلك الرجلَ مطرودٌ. وأمّا مفهوم الهمّةِ عند النقشبنديّين فإنّه مُعْتَقَدٌ هامٌّ جداًّ في طريقتهم، وقد ذكروا منها ما لا يُحصى من حكايات عريبةٍ من طيِّ الأرضِ لهم، ومشيِهم على البحر، وطيرانِهم على أجنهة السُحُبِ وأمثالِ ذلك على سبيل الاستشهادِ بكراماتهم... ومعنى الهمّةِ عندهم: أنّ الشيخ يمدُّ مريدَهُ متى أصابته نازلةٌ فناداه، يقطع مسافاتٍ شاسعةً فيحضر عند مريدِهِ ويُنقِذُهُ مماّ حلّ به من البلاءِ.

4 هو عبد الوهّاب السوسي، موضوعِ هذه العُجالةِ.

وهذا مقطعٌ من نصِّ كلام خالد البغداديِّ في صدد همّتِهِ، ورد ذلك في رسالةِ ابن عابدين.

يقول البغداديُّ:
«فالآنَ أُخْبِرُكُمْ بِأَنّي وَجَميعَ رِجَالِ السِّلسِلَةِ تَبَرَّأْنَا مِنْ عَبْدِ الْوَهَّاب، فَهُوَ مَطرُوْدٌ عَنِ الطَّرِيقَةِ، فَكُلُّ مَنْ تَصَادَقَ مَعَهُ لأَجْلِ الطَّرِيقَةِ فَلْيَتْرُكْ مُصَادَقَتَهُ وَمُكَاتَبَتَهُ، وَإلاّ فَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ إمْدَادِ هَذَا الْفَقيرِ، وإمْدَادِ السَّادَاتِ الكِرَامِ، ولاَ أرّضىَ أَنْ يُكَاتِبَني وَلاَ أَنْ يَسْتَمِدَّ هِمَّتيِ بَعْدَ وُصوُلِ هَذَا الْمَكتوُبِ إِلَيْهِ...»[5]

نعم، فإنّ ابن عابدين العلاّمة الفقيه (!) أيضًا كان يعتقد بهذه الخذعبلات. ولعل هذا هو من الأسباب التي دفع ابنَ عابدين إلى هذا الميدان حتّى اصبح جنديًّا يدافع عن قلعة الصوفية.

يستطرد ابن عابدين قائلاً:
«فَعَلِمْنَا أنّ ما ذَكَرَ (أي هذا الرّجلُ المطرودُ) كذبٌ وافتراءٌ. ويستبعد ابن عابدين بهذا الرّأي الجازم أن يكون الشيخ خالد قد قال شيئًا ممّا نُسِبَ إليه (أنّه يقوم بتسخير الجنِّ، ويستعين بالأرواح الأرضية الخبيثة، ويدّعي علمَ الغيبِ عن إخْبار الجانِّ له، ويدّعي أنّه قتل وربط كثيرًا من العفاريت والجانِّ...). إذ أنّه لو لم يكن يخشى الله لخشي العباد أن ينحطّ قدره على الأقل». (ص/6)

كان هذا لفظ ابن عابدين بالذّات!

5 **عبد المجيد بن محمد بن محمد بن عبد الله الخاني، الحدائق الوردية في حقائق أجلاّءِ النقشبندية، ص/232**

ثمّ أشار إلى »هذه الإدّعاءات الباطلهِ« على حدّ وصفه إيّاها: »فإنّه ممّا تأنفه الأسماع وتمجحه الطباع«

وبالاختصار يقول ابن عابدين: إنّ الشيخ إسماعيل المذكور لم يقل كما أخبر عنه كاتب الرسالةِ، وإنّما أفاد أنّه كان يسمع أصواتًا خفيّةً، ولم ير أحدًا أثناء الذكر والحلقة التي يسمّونها: التّوجُّه. (ص/7)

فأنا تذكّرتُ هنا أمرًا بهذه المناسبة، وهي أنّ مشايخ الطريقة النقشبندية بالمنطقة الشرقية في تركيا كانوا يقيمون طقوسًا غريبةً لا يعرفها المسلمون ولا يعترفون بها، ومن جملة هذه الطقوس أنّهم كانوا يعقدون حلقةً خاصّةً تختلف عن حفلة (ختم خواجكان)، ويسمونها التوجُّه. ومن الغريب أن مشايخ هذه الطريقة بالمنطقة الغربية لا يعرفون عن هذه العادة شيئًا، رغم ما يدّعون أنّهم يتّصلون بتلك السلسلة المزعومة، ورغم اتّحادهم معهم في الطريقة والمشرب والمُعتقد. وهذا من الحجج التي تدلّ على عدم استقرارهم وبطلان دعواهم التي لا تقوم على أساس من الحقّ.

ثم يسجّل ابن عابدين نصَّ رسالةٍ كتبها الشيخ إسماعيل المذكور، يتبرّأ فيها كاتبها عمّا أُسنِدَ إليه، كما يعتزّ بشيخه خالد النقشبنديّ، ويمتدحه مدحًا طويلاً، ثمّ يتبرّأ من كلّ مَنْ يتوهّم السحر أو الكفرَ أو الفسقَ أو البدعة في حقّ شيخه. كذلك يتبرّأ خاصّةً من كاتب الرسالة التي طعن بها في شيخه، وسمّاه هنا، بعد أن

امتنع من ذلك عبر حديثه، فقال: »لاسيّما من المنكر المطرود الذي اسمه عبد الوهّاب...«. (ص/8)

لقد كنتُ في قلقٍ منذ بدأت أتصفّح رسالة (سلّ الحسام الهندي)، هذه التي تَنَاوَلْتُهَا، وَاتَّخَذْتُهَا موضوعًا لِبَحثي ودراستي حول الطريقة النقشبندية، كنتُ في قلقٍ لأتعرّفَ على اسم هذا الشخص الذي سلّ ابن عابدين الْحُسَامَ عليه لينتقمَ منه عن خالد البغداديّ، ولكنّه لم يذكره ألاّ بالضمائر استخفافًا به، حتّى وصلتُ إلى هذا المقطع من الكتاب، فوجدتُ اسمَهُ مذكورًا في رسالةٍ أُخْرىَ منقولةٍ ضمنَ سطورِ ابن عابدين. وهذا يعني أنّ ابنَ عابدين، بلغ منه الغضبُ على هذا الشخص حتّى جعله يكره أن يذكر اسمه في كتابٍ لم يدوّنه إلاّ ليملأه باللّعن عليه. وبذا عرفنا أنّ ذلك الشخص الّذي اصبح غرضًا لسيف ابن عابدين اسمه (عبد الوهّاب السوسي).

ويدّعي الشيخ إسماعيل (على حدّ قولِهِ): أنّ عبد الوهّاب، هذا الطاعن في خالد البغدادي: »قد بنى فضولَهُ على خبرِ قصّةِ الشيخ إسماعيل بالذّات عليه (أي على عبد الوهّاب السوسي)، فيكون عبد الوهّاب قد تصرّف فيما نُقِلَ إليهِ. فزاد عليه أو حرّفهُ بألاستعانةِ بأحد الأشخاص المطرودين من باب الشيخ خالد، حيث كان هذا الشخص مع الشيخ إسماعيل في حجرةٍ مغلّقة البابِ، فسمع أصوات الأجنّةِ تذكر اللهَ. فلمّا قصّ هذا الخبر على عبد الوهّاب استغلّ هذه القصّة فزاد فيه ما زاد.«

ثمّ عثرتُ على اسم هذا الرجل في رسالة أخرى مدوّنةٍ باللغة التركيةِ ألّفها شخصيةٌ من كبار الأعلام فـي تركيـا اسمه قَسِيم كُفْرَوِي، يتطرّق فيهـا إلـى نفـس النـزاع، فيقول: »إنّ عبد الوهّاب السوسي كان من خلفاء خالد البغـداديّ. فكلّفـه شـيخه خالـدٌ بنشـر دعـوته فـي إسـطنبول. ولمـاّ بلغـه أن عبـد الوهّـاب يـأمر النـاس بالرابطة لنفسه، طرده من طريقته بعد أن جرت بينهما مشاجرات ومساجلات...«. كـذلكَ وردت هـذه القصّـةُ فـي عـددٍ أخـرى مـن الرسـائل والكُتُـبِ للنقشـبنديّينَ وغيرهم. فمن أراد المزيد مـن المعلومـات حـول هـذه القصّةِ، يكفيه مراجعـة (الحـدائق الورديـة فـي حقـائق أجلاّء النقشبنديةِ) لِعبد المجيد الخاني.[6]

أمّـا (الرابطـة): فهـي صـلاة فـي الديانـة النقشـبنديةِ مـأخوذةٌ مـن معتقـدات مجـوس الهنـد، ويغلـب أنهـا مقتَبَسَـةٌ مـن كتـاب السـطرايات للراهـب الهنـدي المعـروف باسـم (باتانجـالي Patanjali). تنشـب أحيانًـا بسبب هذه البدعة فتـن بيـن المسـلمين والنقشـبنديين في تركيا.

أودّ هنـا أن أشـير بالمناسـبةِ إلـى أنّـه ظهـر لـي أثنـاء مطالعةِ رسالة (سلّ الحسام الهندي) لابن عابـدين، أنّ المؤلّفَ كان متأثرًا إلـى حـدودٍ بعيـدةٍ بظـروف عصـره والبيئـة الـتي نشـأ فيهـا. وتشـهد علـى ذلـك كلمـاته المسجّعةُ وما يبدو من خلالها من تكلُّفٍ وتصنُّعٍ وتشدُّقٍ.

---

6 Kasım Kufralı, Nakşibendîliğin Kuruluş ve yayılışı, s. 185. Türkiyat Enstitüsü No.337

كلّ ذلك ليُظهِرَ به مهارتَهُ في تنسيق العبارات واتقــانَهُ في التعبير بسحر الكلمات.

لقد كان عصرُ ابن عابدين مرحلةً خطيرةً انتشرتْ فيهـا الفتنُ وعمَّ فيها الفسادُ، وساد الاضطراب علـى الحيـاة الاجتماعية في جميـع أرجـاء المعمـورة، خاصّـةً العـالم الإسلامي شهد انهيارًا بالغًا في الأخلاق والسلوك، فأدّي ذلك إلى ضياع الرُّشْدِ وغياب القِيَمِ الساميةِ والفضائل، حتّى احتلّتْ مكانهـا بِـدَعُ الصـوفيةِ وخرافـاتُ السـحرةِ والمشعوذين. نشاهد موقفَ ابـن عابـدين الغافـلَ عـن أحداثِ وتطوّرات عصـرِهِ فـي كـلّ كلمـة مـن عبـاراته. ونجده في سُباتِهِ العميـق كَجَهَلَـةِ زمـانه لا يفطَـنُ إلـى شــيءٍ بــدتْ أمــاراتُهُ، بــل اســتخدم عِلْمَــهُ ومعرفتــه واستهلك وقته في الرّدّ على شخصٍ هـاجم شـيخًا مـن شيوخ الصوفية وهو في غنىً عن ذلكَ، بينما كـان عليـه أن يســتخدم علمــه فــي إيقــاظ المســلمين وإثــارة مشاعرهم للوقوف أمام التيارات الهدّامة والفلسـفات الماكرة من التصوّف والفرمسونية وأشكال غريبة مـن الزندقــة والكفريــات الــتي أمــاتت الحميّــةَ والغيــرةَ الإيمانيــةَ فــي قلــب الرجــل المســلم وجعلــتْ العــالمَ الإسلاميَّ فريسةً للأمم الكافرةِ بمدّةٍ قليلـةٍ بعـد مـوت ابن عابدين، فانهارت دولة المسلمين، فسقطوا بأيــدي أعداءهم، وزحف الغربُ على الوطن الإسلاميّ بكـامله فاستعمره، وترك فيها من خبائثه يـوم غـادره. ثـمّ بنـوا على أنقاض هذه الدولة العظيمة دويلاتٍ قَزَمَةً وفرّقــوا بـذلك صـفوف المسـلمين وشـتّتوا شـملهم وجعلـوهم شيعًا وأحزابًا، كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

ولكن لم يستطع شيوخ الصوفية المدرّعون بـدفاع ابـن عابدين وأمثـالِهِ أن يُنْقِـذوا المسـلمين مـن هـذه البلايـا على الرغم من تعظيم ابن عابدين لهم وما يعتقد فيهـم من البركة والكرامة والتصرّفات المعنوّية.

ثمّ سجّل ابن عابدين في رسالته (ص/8)، مقطعًا آخـر من كلام عبد الوهّاب السوسي، جاء فيه بالاختصـار: أنّ عبد الوهّاب استشعر أنه سيصبح هـدفًا للأغـراضِ علـى استشهاده بمن هو عدوٌّ لنفس الشـخص الـذي يعـاديه، فعابه ابن عابدين بمثل هـذا الاستشـهاد وبحجـجٍ أخـرى يـدلّ كلامـه علـى سـعة علمـه وكمـال معرفتـه بطـرق الاستدلالِ، على الرغم من غفلته عن واقـع عصـره. إلاّ أنّه نقل شـيئًا مـن كلام ابـن حجـر الهيتمـي الـذي تـدلّ ألفاظه على انتصاره للصـوفية وتسـاهُلِهِ مـع الباطنيـةِ على طريقة ابن عابدين، ممّـا يسـبّب ذلـك عـدم الثقـة برأيهما. ويُستَغرَبُ من مثلهما هذا الموقف.

ثمّ ينهال ابن عابدين على هذا الطاعن في الشيخ خالــد بالتكـذيب المتواصـل، مسـتدلاً بآيـاتٍ كريمـاتٍ عـدّةٍ، ويرميـه بالحسـدِ والافـتراء والـزور، كمـا يحـاول إبـراءَ ساحةِ الشيخ خالد من الكفر والزّندقـةِ بـدلائلَ منقولـةٍ من كُتُبِ الرّجـالِ كـابن حجـر الهيتمـي وابـن شـحنة... ويعزّزها بطائفةٍ من الأخبار والأشعار.

ثمّ بعد كـلّ هـذه المقـدّمات والتعليلات، والحُكْـمِ علـى عبــد الوهّــاب، والإجابــةِ علــى ســؤالٍ مفــروضٍ بــأنّ »القاعــدةَ الّــتي عليهــا التّعويــل بيــن أهــل التفريــع والتأصيل: أنّ الجرح مقدّمٌ على التعديل«.

سلك ابنُ عابدين نفسُهُ خلاف هذه القاعدةِ بحجـة:»أنَّ هذه في غير مَن اشتهرت عدالته وظهرت ديانته، وفـي غير مَن عُلِمَ أنّ التّكلّمَ فيه ناشئٌ عـن عـداوةٍ... إلـخ«. (ص/12)

ثمّ انتقل ابنُ عابدين بعد ذلك إلـى شـرح أمـورٍ متعلّقـةٍ بموضـوع الطعـن فقـال: »ولنشـرح لـك هـذا المقـالَ تتميمًا للمرام في أربعةِ فصولٍ«. (ض/14)

»الفصل الأوّل: في بيان حقيقة الكرامة«
»الفصل الثاني: في بيان حقيقـة الجـنّ والفـرق بينهـم وبين الشياطين، وجواز رؤيتهم والاجتماع بهم«
»الفصـــل الثـــالث: فـــي بيـــان الســـحر وأقســـامه وأحكامه...«
»الفصـل الرابـع: فـي بيـان دعـوى علـم الغيـب إلـى آخره...إلخ«
وربما يكون ابنُ عابدين قد أصاب فـي توضـيحاته الّـتي أوردها ضمن الفصـول الثلاثـة الأولـى، وقـد بـذل جهـدًا بالغًا في الكشف عن أسرار مفهـوم الكرامـةِ والسـحرِ والاستدراج وأمثالها من الخوارق. ولله درّه فـي شـرح مسائلها وبيان الفوارق الموجودةِ بينها. ونقل ما يتعلّـق بها من آياتٍ وأخبارٍ وآراءٍ للعلماءِ. كـذلكَ حسـنُ ترتيبـه لهذه الفصول وتبويبه لكلّ مسألةٍ على حـدةٍ، وأسـلوب استدلاله. كلُّ ذلكَ جدير بالتقدير مما يدلّ على معرفته الواسعةِ وباعه الطويل في مختلـف العلـوم. ومـع هـذا المستوى الرفيع والعقل الراجح والحرص المتزايد فـي اسـتنباط الحقـائق فقـد انثنـى ابـنُ عابـدين عـن منهـج

العلماء المحقّقين عندما تدخّل في دعوى علـم الغيـب. فعلى الرغم من وجود النصوص القاطعةِ في كتاب الله بأنّه وحده تعـالى منفـرد بعلـم الغيـبِ » وَعِنـدَهُ مَفَاتِـحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُو«.(الأنعام 59)ـ » قُـل لاَّ أَقُـولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُـلْ هَـلْ يَسْـتَوِي الأَعْمَـى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ«.(الأنعـام/50)ـ »قُـل لاَّ أَمْلِـكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَـآءَ اللّـهُ وَلَـوْ كُنـتُ أَعْلَـمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُون«.(الأعراف/188).

فقد أغضى ابنُ عابدين عن كلّ هذه الـبراهين القاطعـةِ وتكلّف في تأويل الآية الكريمة: » فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِـهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِـن رَّسُـولٍ«. (الجـن/26-27)، وتمسّك بالقيل والقال بُغْيَةَ أن يُشْـمِلَ هـذه الآيـةَ علـى غير الرّسلِ من البشر من أولئك الّذين يحظون الشهرةَ بِالْتِفَافِ الرَّعَـاعِ حـولهم، وبـإطلاقِ بعـض النـاسِ صـفةَ الولايةِ عليهم وإن لم يدعوها لأنفسهم.

ثم أنهى ابن عابدين رسالته هذه »بخاتمة مشتملة على نبذة يسيرة« وليست بيسيرة في الحقيقةِ وذلك »عــن بعض العلماء الأعلام مـن معاصـري هـذا الإمـام الـذين شهدوا لـه بالفضـل التـامّ وبـأنّه مـن العلمـاءِ العـاملين والأولياء الكرام« على حدّ قوله وطبقا لـذوقه السـقيم وعقلــه المتخلّــف القــديم، فلا يســتحق أن نهتــمّ بــه لبساطة إطلاقه وخلطه ومراوغته ومجازفته...

أمّا بعد هذه الدراسة السريعة لرسالة ابن عابدين المسماة »سلّ الحُسام الهندي...«، فأقول مستعينًا بالله سبحانه على سبيل الإيجاز: أنّ في هذه الدراسة أمورًا بجب الوقوف عليها بامعانٍ وتحليلها في ضوء الكتاب والسنة:

أوّلها: أنّ ابن عابدين –غفر الله لنا وله- قد دوّن هذه العجالةَ ردّا على شخصٍ اسمُهُ عبد الوهّاب، ولم نعثر على شيءٍ من آثارِهِ إلاّ ما ذكرناه. وتَجِبُ الإشارةُ هنا إلى أنّ عبد الوهّاب هذا الرجل المستهدف ليس هو محمد بن عبد الوهّاب (1703-1792م.) الزعيم النجدي الذي تُنسَبُ إليه الطائفة الوهّابيةُ، تفاديًا للاشتباه.

وثاني هذه الأمور: هو أنه ثبت لي من خلال عباراته أن ابنَ عابدين غاضبٌ أشدّ الغضب على هذا الشخصِ بسبب تطاوله على الشيخ خالد البغداديِّ، وكأنّه يرى نفسَهُ مُكَلَّفًا بالدفاع عن هذا الشيخ خاصّةً وأكثر من أي فردٍ آخر من جمهور الناس المتهافتين حول هذا الشيخ! فاستغربتُ هذا الموقفَ منه، ووددْتُ لو عرفتُ السببَ المعقول لهذه المحاولة، كما تمنّيتُ لو عرفتُ نسبتَهُ إلى هذا الشيخ وقرابتَه التي دفعتْهُ إلى هذا الميدان حتّى أخذ على عاتقه أن يقوم بمثل هذه المهمة وأن يتّخذ من هذا الأسلوب الحماسي في الدفاع عنه(!) وقد انتابني الاستغرابُ أيضًا بأشدّ ما يكون، عندما تصفّحتُ أواخرَ كتابِهِ وقرأتُ الفصل الرابعَ من مقالتِهِ إذ يقول للقارئِ بأسلوبه المسجّعِ على سبيل التّنبيه:

»قد ظهر لكَ وبانَ، ممّا قرّرناه في هذا الشأن، أنّ مَن كان من أهل العلم والعرفان، وأخبر عن أمرٍ حَدَثَ أو سيحدثُ في الزمان، ممّا أطلعه عليه الملك المنّان، لا يحلّ لمسلمٍ ذي دينٍ وإيمان، أنّ يتّهمهُ بأنّ ذلك عن إخبار الجانِّ، وبأنّه ساحر وشيطان، وأن يحكم عليه بالكفر والزندقةِ والإلحادِ بمجرّدِ داءِ الحسدِ والافتراءِ والعنادِ؛ فإنّ سهامَهُ ترجع إليهِ، ودعاويهِ تعودُ عليهِ، ويظهر منه خبث العقيدةِ، وأنّ آراءه غيرُ سديدةٍ، ويخشى عليه سرعة الانتقامِ وسوء الختام والعياذ بالله«.(ص/45-46)

نعم هكذا ابن عابدين الفقيه الموقَّر بين جماهير الأحناف بل وعند كثير من علماء أهل السّنةِ! قد انحطّ إلى هذا الدرك الّذي يأسف عليه كلّ ذي علمٍ بالحلال والحرام، وكلّ ومطّلعٍ على العقيدة في الإسلام. فنسأل الله تعالى أن يكون قد ندم وتاب عن هذه الفضيحةِ بعد أن سجّل هذه التُّرَّهات. ولعلّ بعض الأقلام المسمومة قد جرت على حسابه والله أعلم بالخفايا.

أمّا الشيخ خالد البغداديُّ هذا الّذي اختلفت الأقلامُ بين طاعن فيه ومدافع عنه، فقد أوردتُ ترجمته في الفصل الرابع ضمن كتاب ألّفتُهُ تحت عنوان (الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها)؛ ولكنّني أرى أن أذكر هنا أيضًا نبذةً من أحوال هذا الشخص الخطير الّذي جاءَ بنظرةٍ روحانية جديدةٍ أشغل بها عقول ملايين الناسِ في عبادة اللهِ منذ قرنين. فحدث بذلك

تغيّرُ جذريٌّ في عقائد المنتسبين إليه، وانتشرت بــدعته خاصّةً بين الأتراك والأكراد على الساحة التركية.

خالــد البغــداديُّ رجــل مــن أكــراد العــراق ينتمــي إلــى العشـــيرة الميكائيليـــة القاطنـــة بضـــواحي مدينـــة السليمانية. وُلِدَ البغداديُّ عام 1778 للميلاد، ونشأ في المنطقة نفسها. درس على جماعة من الملالـي الّـذين جرت العادةُ على تسميتهم بالعُلماءِ وهم فــي الحقيقــة لم يكونوا من العلمــاءِ. إذ لا شــكّ أنّ العلــم هَجَــرَ أرض المسلمين منــذ قــرونٍ وحلّــتْ بهــم حقبــةٌ مظلمــةٌ بعــد القرن الثالث من الهجرة النبوية عليــه الســلام ودامــت إلى هذه الأونة. بهذا طبعًــا لا يجــوز إطلاقُ صــفة العلــمِ على البغداديِّ أيضًا ولا على أحــدٍ مــن الملالــي وشــيوخ الصــوفيةِ. إذ أنّهــم طبقــة مــن أهــل الرهبنــةِ والجهــل والعمى، لا حــظّ لهــم مــن العلــوم والمعــارف والثقافــةِ المعتَرَفِ بها في العالَمِ المتحضِّرِ؛ بل كــانوا ولا يزالــون يدرسون ركامًــا مــن الكتــب ذات الــورق الأصــفر الــتي حشاها نفر من شيوخ العجم بعباراتهم المعقّدةِ، كتبوها في عصور الظلامِ مثل كتاب العزِّيِّ في الصرفِ وكتاب الإظهار والنتائج وحــلّ المعاقــد والفوائــد الضــيائيةِ فــي النحوِ. وعدد أخر من كتبهم مدوّنةٌ باللغة الكرديــة مثــل كتاب الظروفِ والتركيبِ في النحــو العربــيِّ. كــلُّ هــذه الكتب خالية من القيمة العلمية لا فائدة فيهــا، عباراتهــا غامضــةٌ ومعقّــدةٌ، لــم ينجــح مؤلِّفوهــا فــي الأســلوب والتبويب. فضلاً عما حشدوا فيها من شروحٍ وحواشــي مطوّلةٍ زادتهــا غموضًــا فحوّلتهــا إلــى ألغــازٍ أعيــتْ مَــنْ تناولها من الطلبة والمدرّسينَ، فأشغلتهم عــن الانفتــاح الّذي يشهده العالَمُ المتحضِّر وعن الصحو الّذي بفضلــه

قطع جماهير المثقّفين شوطًا بعيدًا في مضمار العلــوم والفنون. كمـا أنّ هـذه الكتـب غيـر معروفـة فـي البلاد العربية. والطّامّـة الكـبرى أن التلاميـذ كـانوا يحفظـون هذه الكتبَ طوال مدة لا تقلّ عن خمســة عشــر عامًــا. ثم تعود عليهم بالخسران والندم حيـن يتخرّجــونَ وهــم غيــرُ ذي كفــاءةٍ لأيّ عمــلٍ. لــذا منهــم مّــن يمــارس الشعوذةَ، ومنهم مّن يصبح ذيلاً للصوفيةِ طلبًــا لرغيـفٍ يُشبِعُ به بطنَه.

كان خالد البغداديُّ من أبناء هذه البيئة المتخلِّفَةِ. ولكنّه كان لَبِقًا نشيطًا جريئًا متلوّنًا يتقلّبُ مع الظـروفِ بصـبرٍ وينسـجمُ مـع كـل مَـنْ يرجـو منـه المصـلحةَ ويسـتغلُّ الفرصة في حينها. ساعدته هذه الطبيعة حتى اسـتطاع أن يحقق جميـع أهـدافه ويصـبح رجلاً مرموقًـا يتهـافت عليه الآلافُ، وإن كـانوا مـن الأوغـاد والرعـاعِ. ذلـك أن مِنْ واقع الحياة الاجتماعية أن الإنسانَ متى حظـي مـن الشهرة واحتفل به الناسُ وخاصّةً إذا كانوا صادقين في ولاءهم له، هانت عليه صعاب الأمورِ ودانت له الرقاب. هذا ما حصل للبغداديّ حتى طارت شهرته إلى الآفــاق. فلم يحتمل لأحد، حتّـى للعلمـاء أن يـدققوا النظـر فـي دعوته الجديـدة، عَمَّـا إذا تُوَافِــقُ أصـولَ الـدّينِ أم هـي بدعـــةٌ أو سلســـلةٌ مـــن معتقـــداتِ الديانـــة البوذيـــة والهندوكيةِ!

كان خالدٌ ماهرًا في استمالة قلوب الناسِ والتحكّم في رقابهم. نَجَحَ بذلك في جمعِ نُخْبَـةٍ مـن رجـالاتِ الأكـرادِ تحت زعامته، ونفذ إلى قـرارة نفوسـهم بسـحره حتّـى غـدوا عبيـدًا يعكفـون علـى أعتـابه وهـو يسـيطر علـى

نفوسهم وعقولهم بعد أن عوّدهم على صلاة الرابطةِ وهي شطرٌ هامٌّ من طقوسهم، ومبدأٌ أساسيٌّ تقوم عليه هذه الطريقةُ الصوفيةُ اقتبستها من الديانة البوذيةِ. يكمُنُ سرُّ الطريقة النقشبندية في هذا المبدأ الخطير الّذي يجعل من المريد عبدًا ذليلاً أمام شيخه، مُتَفَانيًا فيه، يطيعه في كلِّ ما يأمره، ولو كان محرَّمًا بنصِّ الكتابِ والسُّنَّةِ!

لعب خالدٌ دوره في نشر طريقته على جميعِ أرجاء المملكةِ العثمانيةِ بجهود أنصارِهِ من ملالي الأكرادِ وعلى رأسهم: عبد الرحمن الكرديّ الْعَقْريّ، وعبد الفتاح الكرديّ العقريّ، ومصطفى الكُلْعَنْبَريّ، والملا عباس الكوكيّ، والملا هداية الله الأربليّ، وملاّ عثمان الكرديّ الطويليّ، وخالد الكرديّ، وعبد القادر الديملانيّ، ومحمّد المجذوب العماديّ، ومحمّد الفراقيّ الكرديّ، ومحمد بن عبد الله الخاني، وإسماعيل الأنارانيّ... لقد حاول هؤلاء ومئاتٌ آخرونَ من ملالي الأكراد والأتراك بكل ما في طاقتهم، وبذلوا أقصى جهودهم في نشر دعوة هذا الرجل إلى الآفاق دون أن يتأمّلوا هل أنه على حقٍّ أم على باطل، حتّى أصبحت حكومة الدولة العثمانيةِ تتهيّبُه وتعترف بمركزه وتحسب له حسابها. فكانت من نتائج هذا التحفّظ أن اتَّبَعَتْ الدولةُ سياسةً خاصّةً سايرته بها واستغلّتْه في حرب الوهّابيّةِ. إذ وافقتْ هذه السياسةُ أهدافَ الدّولةِ وأهدافَ خالدٍ في الوقتِ ذاتِهِ. لأنّ الدّولةَ كانت في حاجةٍ إلى موافقة الرعيّةِ في هذه الحربِ، فحصّلتْها بتأييدِ خالدٍ.

إنّ الصـوفيةَ عامّـةً والنقشـبنديةَ خاصّـةً يكرهـونَ أهـل التوحيدِ، ويرمونهم بإساءة الأدبِ إلـى ذَاتِ النـبيِّ عليـه الصلاة والسلام، وإلـى الشخصـيات المعروفيـن بينهـم بالأوليـاءِ، كمـا أنّ أهـل التوحيـدِ (بمـا فيهـم الوهّابيـة)، يكرهون سائر القبوريينَ. ولمّا كانت معتقـدات معظـم الأتـراك والأكـراد مشـوبةً بالوثنيـةِ، نـالتْ دعـوةُ خالـدٍ البغـداديّ رغبـةً عظيمـةً بيـن الطّـائفتين، وانتشـرت الطريقة النقشبنديةُ على كامل السـاحة العثمانيـة فـي فترة أقل من ثلاثة أعوام. وصلت دعوة هذه النحلة إلى أقصى بقاعِ شبه جزيرة البلقان غربًا، وإلى تخـوم دولـة الـروس فـي جبـال قوقـاز شـرقًا، واجتـاحتْ منطقـةَ كُرْدِسْتَان والأناضول بتمامها في حيـاة خالـد البغـداديِّ. كـانت هـذه التطـوّرات فـي الحقيقـة انتصـارًا عظيمًـا للوثنيةِ الجديدة على أرض الإسلام. وما زال هذا الخطرُ المتنكّرُ في لباسِ الزُّهدِ والتَّقـوى يهـدّد الـدين الحنيـف على هذه الساحة، كما أنّ القلّة من المـؤمنين الحنفـاءَ من أبناء الْقَـوْمَيْنِ الـتركيِّ والكـرديِّ يعـانونَ اضـطهادًا شـديدًا فـي هـذه الآونـة الأخيـرةِ مـن جـرَّاء التحـالُفِ العلمانيِّ-النقشبنديّ.

مات خالدٌ عام 1826 للميلاد وهو نَادِمٌ على ما جـاء بـه من البدع، وألفاظه شاهدة علـى هـذه الندامـة إذ يـردّد الآية الكريمة {يَا حَسْرَتىَ عَلىَ مَـا فَرَّطْـتُ فـي جَنْـبِ اللـهِ...}[7] قُبيـلَ أن يلفـظ أنفاسَـه الأخيـرةَ. ولعـلّ مَـن يقـول معترضًـا أن كـلَّ مـؤمن يحظـى مـن الصـحوة الإيمانيـةِ ، لا بـدّ وأن يُكـثرِ مـن الاسـتغفارِ وأن يُظهِـرَ الندامةَ وهو على الرمق الأخير. هذا كلام صحيح لا شَكَّ

[7] سورة الزمر/56.

فيه. ولكنه لا يصلح أن يُحتَجَّ به لإبراء ساحةِ خالد. لأنّه بالذّات يعترف في وصيته بسلبياتٍ صدرت منه على سبيل الإيجاز وهو مضطرٌّ للاختصارِ آنئذٍ حتمًا في تلك الظروف الخطيرة التي حلّت به إذ كان قد أصابه الطاعون، والله سبحانه أعلم به أنه لو كان على كمال الصحّةِ لربما اعترف بأضعافِ ذلك. وهذه كلماته الأخيرة: »لا تزيدوا التكايا عما في عهدي. ومن أراد الإحداث فليعمّر جامع العدّاس«.[8] فقولوا بالله، أيُّ شيخٍ من شيوخ الطرق الصوفيةِ أوصى حتّى الآن بمثل هذا الأمر، ونهى أصحابه عن أن يزيدوا في عدد التكايا؟! هذا أمرٌ لا يستقيم مع المنطق السليم. إذ أنّ النهيّ عن إقامة التكايا معناه النهي عن ممارسة طقوس الصوفيةِ. وهذا قد صدر عن خالد البغدادي بصراحةٍ بالغةٍ من خلال كلماته المنقولة آنفًا. والله تعالى غنيٌّ عن عذابه وعذابنا، كما نَتَمَنَّى أن يشملنا جميعًا غُفْرَانُهُ، إلاَّ أنَّ تأثيرَ هذا الرجل لا يزال يوجّه ملايينِ الناس في ازدياد التكايا، وإسرَارِهِمْ على بِدَعِهِ، فضلاً عن الاضطهاد الذي يمارسه أنصارُ طريقتِهِ ضد المؤمنين الحنفاءِ في تركيا اليوم.

وعلى ضوء ما أوردتُ في هذه العجالة من معلومات هامّةٍ أريد أن أختتم كلامي بنبذة من الوصايا للقرّاءِ الكرام، وخاصّةً منهم القائمينَ بإرشاد الناسِ أن يلتزموا جانب الحيطةَ في ثلاثة أمور:

---

[8] راجع ترجمته بالتفصيل في كتاب "علماء دمشق وأعيانها في قرن الثالث عشر الهجري للمؤلّفَين: محمّد مطيع الحافظ ونزار أباظه، الجزء الأول ص/ 311. دار الفكر-دمشق.

أوّلها، أن يتمسّكوا بمذهب السلف الصالح في التعامل مع كتاب الله العزيز. وأمّا مذهبُ السلف، فهو تركُ التأويل، وعدمُ المبالغة في التفسير، والتفويضُ إلى الله تبارك وتعالى في المتشابهات بلا تعطيل. {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ...}. إنّ الاقتحام في هذا الأمر عدول عن جادّة الصوابِ، كما لا يخفى تمييع أهل التأويل للعقيدة الحنيفةِ ممّا أسفر ذلكَ عن مُعتَقَدَاتٍ باطلةٍ افتتنتْ بها الناسُ وتغذَّت بها النفوس المريضةُ، وقامت على أساسها فِرَقٌ بَاطنيةٌ وأحزابٌ شريرةٌ ضربت الإسلامَ من الدَّاخلِ. ولا يزال المسلمون في شتاتٍ واختلافٍ وتناحُرٍ من جرّائها.

أمّا ثانيها، أن يحذّروا المسلمين من مخالطة الصوفيةِ الّذينَ يظهرون للناسِ في لباس الزهدِ والتّقوىَ، وهم في الحقيقة زائغون عن المنهج الّذي رسمه الله لعباده بأن لا يسلكوا غيره في العبادةِ له تعالى. ولكنّهم أَبَوْا إلاّ أنْ يخالفوا هذا المنهج، فاختلقوا من تلقاءِ أنفسهم أشكالاً غريبةً من المناسك والتعبّدِ وربما اقتبسوها من طقوس المشركين واليهود والنصارى أسوةً بعبدة الأوثانِ، وتقرُّبًا إلى اللهِ بما يُسخِطُهُ، ورهبانيةً ابتدعوها ما كتب الله عليهم، وما أنزل الله بها من سلطان.

إلاَّ أنّ الأمرَ لا ينبغي أن يكونَ مجرّدَ تحذيرٍ من منطلقِ الحقدِ عليهم والبغض لهم، لأنّ ذلك يثيرهم، فلا يجدي بما هو المطلوب. إذ ليس من المعقول أن يُرجى هدايةُ من يُكرَهُ على الطاعةِ ولو كانت الدعوة إلى الحقِّ الّذي لا مريةَ فيهِ. لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيْؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ

اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَـامَ لَهَـا وَاللَّـهُ سَـمِيعٌ عَلِيم. (البقرة/256). وقد يكـون التشـدّد فـي الـدعوة سببًا لتطوُّر الخلافِ بين أصـناف النـاس. إِنَّـكَ لاَ تَهْـدِي مَـنْ أَحْبَبْـتَ وَلَكِـنَّ اللَّــهَ يَهْـدِي مَــن يَشَــاءُ وَهُـوَ أَعْلَـمُ بِالْمُهْتَدِين.(القصص/56). ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِنَّ رَبَّـكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَـن ضَـلَّ عَـن سَـبِيلِهِ وَهُـوَ أَعْلَـمُ بِالْمُهْتَـدِين. (النحل/125). لأنّ التشدّدَ في الدعوةِ ربما يـؤدّي إلـى تفاقم الفتنةِ والشغبِ، والفتنة نائمةٌ يحرم إيقاظها.

هذا فإنّ مِنْ طبيعةِ عـوامّ النـاس، أنّهـم يغـترّون دائمًـا بظواهر الأمور ويعتمدون علـى الشـكل، لعجزهـم عـن الإطلاعِ على المقصود به. خاصّةً فـإنّ الطبقـة العامّيـة في تركيا معروفة بإفراطها في التقليـد. هـذه الخصـلة أوقعت كثيرًا منهم في الزندقة والبِدعِ باتبـاعهم شـيوخَ الصوفيةِ والمنتحلين. فمتى وجد أحـدهم شـيخًا مُعمَّمًـا وعليه لباس المتنسّكين علقت به نفسه، خاصّةً إذا وجد حولَهُ جماعةً ركن إليه وافتتن به. هـذا التقليـد الأعمـى هو الّذي حمل الناس فـي هـذا البلـدِ منـذ القـديم علـى اتبــاعِ شــيوخ الصــوفيةِ والمبالغــة فــي تعظيمهــم وتوقيرهم. حتّى عدّوهم من أولياء اللـه رجمًـا بـالغيب، ووصفوهم بما ليس فيم مـن خصـالٍ جليلـةٍ، واعتقـدوا فيهم ما يستحيل عليهم. وقد بلـغ تعلّقهـم بمثـل هـؤلاءِ حتّى إذا تصدّى لهم أحدٌ وأنكر علهـم مـا يعتقـدون فـي شـيخهم مـن علـم الغيـبِ والخـوارق علـى أنهـا مـن كراماته، تعرّضَ لسخطهم، وربمـا نـاله خطرهـم. وقـد يشجّعهم موقـف شـيخهم منهـم. لأنّ شـيوخ الصـوفيةِ يسكتونَ على كل ما يعتقد فيهـم أنصـارهم ممـا حرّمـه

الله، أو ما يستحيل عليهم عقلاً. وربما يثيرونهم على المناوئين.

وليس من القليل ما وجدنا من هذا القبيل، خاصّةً وأنّ المناطقَ التي يسكنها المسلمون من غيرِ العربِ، فإنّ هؤلاءِ الأشخاصَ المستغلّينَ هم أكثر حظًّا في إضلالِ الناسِ وأقدرُ على ذلك في تلك المناطق. كما لا يخفى أنّ الصوفيةَ لا أثر لهم يستحقّ الذكرَ في المناطق العربيةِ. أمّا بقيةُ المسلمين من الأكرادِ والأتراك والشراكسةِ وغيرهم من الأقلّيات العجميةِ، فإنّ العامّةَ منهم تشعر نقصًا بالغًا في نفسِها أمامهم. إذ ينشأُ هذا الشعور من جهلِها بالأمورِ الدقيقةِ في الدين من جهةٍ، كما أنّ الدّياناتِ القديمةَ التي كانت هذه الشعوبُ تعتنقُها في ما سبق، لَها آثارٌ ظلّتْ في نفوسِ البعضِ منهم، ثم تفاقمت وشاعت مع الزمان بعد أن أُجْرِيَتْ عليها تعديلاتٌ وتمّ عرضُها باسم الإسلام من جهةٍ أخرى. وما دامتْ اللغَةُ العربيةُ هو المفتاح الوحيد الذي لا يمكن الوصولُ إلى الإسلام إلاّ بِها، فإنه لابدّ لهذه الشعوبِ أن تهتمّ بهذ اللغةِ لِتُقِيمَ صلَتَها مع الإسلام من جدبد وبصورةٍ صحيحةٍ. وإلاّ فلا يكاد المجتمع يتخلَّصُ من الإضطراب والفوضى السائد على المعتقدات والأفكار في هذا البلد.

كذلك، فإنَّ للشيعةِ أثرٌ كبيرٌ على معتقدات الأكراد السنّيين القاطنينَ في شرق البلاد (المنطقة الواقعةِ على الحدود الإيرانية التُّركيةِ)، وذلك بحكم الجوار. ولهذا الأثرِ ملامح ظاهرةٌ على الحياة الدينية للأكراد. كاعتقادهم بالأئمّةِ الاثنى عشر على غرار الشيعةِ.

ويشهد على ذلـك مـا تتضـمّنُهُ رسـالةُ (نوبهـار) للشـيخ أحمد الخاني التي قد ألّفها باللغة الكرديـة (وأخيـرًا قـد تـمّ تصـحيحُها وتنقيتُهـا مـن آثـار المعتقـدات الدخيلـةِ)؛ وكاعتقادهم بما يُنسَبُ إلى شيوح الطُرُقِ الصوفيةِ مـن علم الغيبِ والتصرُّفِ فـي القـدرِ. لـذا يتواضـعونَ لهـم تواضعَ العبد الرقيـق لسـيِّدِهِ علـى غـرار أهـل الرفـضِ لآياتهم، بل يبلُـغُ هـذا التّواضُـعُ منهـم أحيانًـا إلـى تـذلُّلِ الكلبِ لِصاحِبِهِ. وقد أصـبحتْ هـذه العـادةُ شـائعةً بيـن الجماعات الصوفيةِ كما يشـهد علـى هـذه الحقيقـةِ مـا نقلَهُ ابنُ عابِدين في رسالتِهِ (سَلُّ الحُسـامِ الهنـدي...) من كلامِ الشيخ خالد البغداديِّ المعروفِ بين أتبـاعِهِ بِـ (ذي الجناحين)، أنّـهُ يقـول:»أنـا مِـن كِلَابِ السَّـادَاتِ« (ص/37)

أمّا شيوخ الطـرق الصـوفيةِ ف ي الحقيقـةِ ليسـوا علـى علـمٍ تـامٍّ بِلُـبِّ العقيـدةِ الإسـلاميَّةِ والتوحيـد الخـالِصِ لأسـباب كـثيرةٍ تعـود إلـى الظـروف الاجتماعيـةِ الـتي تحيط بهم والبيئة التي يتربَّونَ فيها والمناهـج التعليميـة الوعرة المتطرّفةِ التي تُطَبَّقُ في مدارسِهم. لذا لا يكادُ أحدٌ منهم يُتقِنُ لُغَةَ الضَّادِ نُطقًـا وكِتابـةً، بـل يقتصـرونَ علـى حفـظِ قواعِـدِ الصَّـرفِ والنحـوِ، ويضـربونَ مثـالاً شـيطانِيًّا فـي العِنَـادِ بهـذه المحاولَـةِ دونَ أن يتـذوّقوا حلاوةَ هذه اللغـةِ، ولا أن يفطنـوا إلـى أنّهـا أداةٌ للتعـبير عـن كُـلِّ مـا يُقصَـدُ بـه مِـنْ سـلبٍ وإيجـابٍ. لـذا فـإنَّ معرفتَهم متفاوتةٌ فيها، بل قليلةٌ غالِبًا، حيثُ لا يكادُ أحدٌ منهم يكتُبُ وينطِقُ بالعربيـةِ حتّـى بـأدنى مـا يـدور ف ي خلدِهِ ويدبُّ في ذهنِهِ مـن أمـورٍ بسـيطةٍ؛ إلاَّ مَـنْ كـانَ منهم من أبناءِ أسـرةٍ عربيـةٍ. كـذلكَ إنّهـم جهلـةٌ بواقـع

العصرِ والتطوُّراتِ الخطيرةِ بما يعانونَ من الفقرِ العلميِّ والفكريِّ؛ يأخذُ بعضُهم من البعضِ الآخرِ دونَ معرفةٍ، وينقُلُ منهُ دونَ رويَّةٍ، يقلِّدونَ صناديدَهم بلا وعيٍ، ويعبدونَ اللهَ على غيرِ بصيرةٍ، وإنّما يقتصرُ همُّهُمْ على جمعِ الناسِ حولَهم بطُرُقٍ شَتّىً وأساليبَ ماكِرَةٍ، وقد تدعمهم الحكوماتُ والسُّلُطاتُ لإبعادِ الناسِ عن الحياةِ السِّياسِيَّةِ حتّى تخلُوَ لَها الجوُّ، وتصفُوَ لَها الأمورُ لِيَتَهَنّىَ رِجالُ السِّياسَةِ والطائِفَةُ الحاكِمَةُ بِما شَاءَتْ لَهم أنفُسُهم.

كذلك، فإنَّ شيوخَ الطُّرُقِ الصُّوفِيَّةِ هم في غفلتِهِمْ يعمهمن، وبأباطيلهم يشتغلونَ. لا يهمّهم ما يحلُّ بالمسلمينَ من عدوانِ أهلِ الكفرِ، وما يتعرَّضونَ له اليومَ في مختلفِ انحاءِ العالَمِ على أيدي اليهودِ والنصارى والمجوسِ من تشريدٍ، وقهرٍ، وظلمٍ، واضطهادٍ، وقتلٍ، وقمعٍ، وإبادةٍ... أمّا الشيوخ، فإنّهم لا يكادونَ يتقلَّبونَ في حياةٍ موهومةٍ غافلينَ عن كُلِّ ما يجري حولهم من صِراعٍ، وحروبٍ، وتطوُّراتٍ، واكتِشافاتٍ، وأحداثٍ غَريبَةٍ، وانقِلاَباتٍ خطيرةٍ، يتأثَّرُ بِها المسلمونَ؛ بل إنَّهم زيادةً على هذه الغفلَةِ يتقوّلونَ على اللهِ بِتأويلِ آياتِهِ وحملِها على غيرِ ما أرادَهُ اللهُ، وإنْ كانَ القليلُ منهم يتعمّدونَ التَّلبيسَ والتّدليسَ في ذلِكَ. كما أن أكثرِيَّةَ المعاصرينَ منهم أيضًا غافلون عمّا وقع فيه أسلافُهم من الضّلالةِ على جهلٍ، لعجزهم عن دركِ الحقيقةِ، وهذا هو السبَبِ الأساسيَّ لافتنانِ الأخلافِ بساداتهم الأوّلينَ وكبراءهم الذينَ أضَلّوا السَّبيلَ، وأفسدوا عليهم الفهمَ الصَّحيحَ. ذلك أنّ إفراطَهُمْ في تعظيم شيوخم هو المصيبةُ الكبرى لِهؤلاء

الأخلافِ. لأنّ شدّةَ اعتقادَهِم فـي أسـلافِهم وصـلَ بهـم إلى درجةٍ من اليقينِ المؤكَّد في كمالِهِم حتّى آمنوا بِأنّه يسـتحيل عليهـم الوقـوع فـي الخطـأ إطلاقًـا. ولهـذا يقدِّسونَ شيوخَهم، وينقادونَ إليهم في كُـلِّ مـا قـد وَرَدَ عنهم من أراجيفِ عَبَدَةِ الأوثانِ، وقد يزيـدونَ عليهـا مـا تهوي إليهِ نفوسُهم مِنْ كُـلِّ بدعَـةٍ وهرطَقَـةٍ. فَيَتَنَاقَلُهَـا جيلٌ عن جيلٍ. كما أنَّ غالِبَ الناسِ مِمَّنْ هُوَ أعمىَ قلبًـا منهم، مُغْتَرّونَ بهـم اليـومَ. وقـد دأبـوا لأنفُسِـهم أورادًا وأذكارًا ومناسِكَ، أخذوا جُزئِياتِها مـن الإسـلام، فركّبـوا منها أشكالاً غريبةً، وسَمّوها بأسماءَ مزيجةٍ بالفارسـيةِ، مثل: »خَتمِ خواجكان، و هُوشْ دَردَم، و سَفَرْ دَرْ وَطَنْ، و خَلْوَتْ دَرْ أنْجُمَنْ، و يَادْكَرِدْ، و بَازْكَشْتْ و نِكَاه دَاشتْ، و يَادْ دَاشْت...« وغير ذلك. وقـد اختلقـوا صِـيَغًا غريبـةً من الدعاءِ والمديـحِ يُرَدِّدونَهـا ويؤَلِّهـونَ بِهـا غيـر اللـهِ، ويبـالِغونَ بِهـا فـي مدائِـحِ سـاداتِهم كقـولِهم: »قطـب العـارفين، وغـوث الواصـلين، وإمـام المتّقيـن، وتـاج الكـاملين، ونـور السـماوات والأرضـين...«! وعنـدما يذكرونَ اسـمًا مـن أسـماءِ سـاداتِهم، يُعَظِّمـونَهُ بِـدُعاءٍ غريبٍ. يبدو من هذا الدّعاءِ أنّهم لا يرونه في حاجةٍ إلـى رحمةِ الله، بل يرونه عنيًّا عنها، فيقولونَ: »قَـدّسَ اللـهُ سِرَّهُ العزيز« أو »قَدَّسَ الله أسرارَهُ، وأفاضَ علينا بِرَّهُ وَبَرَكَتَـهُ وَأنـوارَهُ...« إلـى غيـر ذلـك مِـن شِـرْكِيَّاتٍ، وخـزعبلاتٍ وإسـرائيلِيّاتٍ مخالفـةٍ لأسـلوبِ دُعـاءِ المسلمينَ. إذ لا يستنكِفُ المسلِمُ أن يطلُـبَ مـن اللـه الرحمةَ سواءٌ كانَ لِنَفسِهِ أو لِغيـرِهِ مـن المـؤمنينَ ولـو كانَ نبيًّا.

في الحقيقةِ إنّهم يواجهونَ ردًّا عنيفًا ودِفاعًا شديدًا مـن علماء المسلمينَ في كُلِّ عصرٍ، ولا يـبرحونَ فـي ضيقٍ وحرجٍ لما اقترفوا مـن الجناياتِ علـى الإسـلامِ بـأنواعِ المُفْتَرَيَـاتِ، ويزعمـونَ أنَ المسـلمينَ لا يعتقـدونَ بالشـفاعةِ والتّوسُّـلِ وكرامـاتِ الأوليـاءِ، لأنَّ الصـوفيةَ يَعُـدّوُنَ صَـنَاديدَهم فحسـب مـن الأوليـاءِ دون غيرِهـم، رجمًا بالغيبِ، بينما المسـلمونَ لا يعـترفونَ بهـم. ومِـنْ خُرافِيَّاتِهِمُ التي لا حصر لها: أن الولايـةَ متسلسـلةٌ عنـد بعضهم في سُلاَلاَتٍ معيّنـةٍ مـن مشـائخ الطّـرُقِ؛ فهـي عائلاتٌ مقدّسَةٌ عندهم.

ولهـذه الأسـبابِ كُلِّهـا يجـب الاحتيـاطُ فـي معاملـة الصوفيةِ، وإرشادِهم إلى الحقِّ، ومجـادلتهم بـالّتي هـي أحسن؛ لأنّهم أشدّ الناسِ تعصُّبًا وتعنّتًا وحمقًـا واغـترارًا. فإنَّ إقناعَ الأحمقِ والمغـترِّ والمكـابِرِ مِـنْ أشَـدِّ الأمـورِ تعقيدًا. وقد قال تعالى بشمولٍ وعمومٍ: سَأَصْرِفُ عَـنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...(الأعراف/ 146).

هـذا، ومـن خصـائص شـيوخَ النقشـبندية أنّ أكـثرهم يرفضونَ الحوارَ، لذا يستحيل تبـادل الـرأي والمناقشـةِ معهـم؛ ذلـك لفـرط عنـادهم، ولإعجـابهم بعقيـدتهم، واغترارهم بمن أفسـدوا عليهـم سُـبُلَ الهـدى وَأَلْبَسُـوا عليهـم الحـقَّ بالباطـلِ، واعـتزازهم بمـن حـولهم مـن الأنصارِ والمؤيِّدينَ؛ خَاصَّةً فإنَّ الأمرَ يتأكّدُ حذرًا وحيطةً مع الشيوخ الذينَ يتمتّعونَ بكثرةِ رجـالِهم، الجَهَلَـةِ مـن المريدين الذينَ هـم رهـن إشـارتهم، ليفتـدوا بـأموالِهم وأنفسهم في سبيلِ أدنى غرضٍ من أغراض الشيخِ. إنَّ

هذا الرصيدَ من القوَّةِ العمياءِ مع العقليةِ الحمقـاءِ، هـو الذي جعل رجالَ السياسةِ يسـايرونهم فـي هـذه البلادِ، ليستغلّوا تأييدَهم في كـلّ موسـمٍ للإنتخابـاتِ. ولله درّ مَن قال:

إذا كانَ الزمانُ زَمَانَ حُمقٍ * فإنّ العقلَ حِرمانٌ وشُؤْمٌ.
فَكُنْ حُمْقيٍ مَعَ الحُمْقىَ فإنّي * أرىَ الدُّنيا بدولَتِهِم تَدوُمُ.

وممّا يجبُ معرِفَتُها على النّاهِضِ لمُقَـارَعَتِهِمْ أن يعلـمَ: إنّ دينَ التصوُّفِ يأمر بأشياءَ كثيرةٍ قد أمرَ بِهـا الإسـلامُ قبلَ هذا الدّينِ المستحدَثِ؛ كالزُّهدِ، والتّقـوىَ، والعِفَّـةِ، والقناعَـةِ، والحِلـمِ، وصـفاءِ السَّـريرَةِ، والاسـتقامةِ والكَرَمِ، والإيثارِ، ومحبَةِ اللهِ ومحبَّةِ رَسولِهِ والصـالِحِنَ، وملاَزَمَةِ ذكر اللهِ، والمواظبةِ علـى النوافِـلِ، والشَـفَقَةِ على خَلقِ اللهِ، والصَّبرِ، والتَّوَكُّـلِ علـى اللـهِ، إلـى غيـرِ ذلِـكَ مـن الخصـالِ الحميـدةِ، والأعمـالِ الصَّـالِحَةِ، والسُّلوُكِ الرَّفيعِ. فليتأكّد المناهضُ لهم بـأنّهم يتـوارونَ بهذه الأعمالِ والخصالِ في ظاهرهم، ويدافعونَ بِها عن أباطيلِهم.

أمَّا في الواقِعِ فإنَّ هذه الأمورَ كلَّها جُزئِياتٌ مـن صـميم الإسلامِ، وليـس لهـا ادنـى صـلة بـدين التصـوُّفِ ولا بـالطُّرُقِ الصـوفيةِ الـتي هـي فـي الحقيقـةِ مُنظَّمـاتٌ مشبوهةٌ مُختَلِفَةٌ ذاتُ عَقَائِدَ مَزيجَةٍ بين تعاليم الإسـلامِ والأديانِ الوثنيةِ. ذلكَ، أنّ الصوفيةَ قد أقتبسوا مفـاهيمَ كثيرةً من الإسلامِ فاستغلّوها، وتقمّصـوا بهـا عـن حـظٍّ

نفس، ثمَّ أضافوا إليها ما ليسَ من الإسلامِ في شيءٍ، واختلقوا طقوسًا ومفاهيمَ ومُعتَقَدَاتٍ ما أنزل الله بها من سلطانٍ. كحلقاتِ الذكرِ، وحَفَلاتٍ سِرِّيَةٍ (بالسمِ التوجُّهِ والصحبةِ)، ومناسِكَ دَجَلِيَّةٍ مُقَلَّدَةٍ من مناهلِ الشرك والوثنيةِ، (كَرَابِطَةِ الشَّيخِ، وعَدِّ الأذكارِ بالحَصىَ)، واستِعرَاضاتٍ غريبةٍ (كالسَّماعِ، والرقصِ، والحركاتِ الموزونَةِ جماعةً وَفُرَادىَ، والعزفِ على آلاتِ الموسيقى، والترنُّماتِ المطربةِ، وطعنِ الأسياخِ في الجسمِ، وابتلاعِ الموادِّ القاطعةِ، كالزجاجِ وقِطَعِ الأمواسِ، ومَسِّ النَّارِ)... ولهم أحوالٌ، وأقوالٌ، وأطوارٌ، وَبِدَعٌ مثيرَةٌ كالوثبِ، والقفزِ، والشطحاتِ، ودعوى علم الغيبِ واعتقادِ ذلك في المتنسِّكينَ والمتزمّتينَ من أوليـاءهم، وقولهم بالمكاشفاتِ، والاتحادِ والحلوليةِ...

كلُّ ذلكَ مأخوذةٌ من الزرادشتيةِ، والهندوكيةِ، والمانويةِ والغنوصيةِ وأمثالِها من الأديانِ المحرَّفةِ والعقائد الوثنيةِ، والفلسفةِ اليونانيةِ... خاصَّةً فإنَّ لِكُلٍّ من اليهوديةِ والمسيحيةِ تأثيرٌ كبيرٌ على دين التصوُّفِ؛ وبذلكَ قد مزّج الصوفيةُ ضروبًا شتّى من الأباطيلِ بتعاليم الإسلامِ. خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، ولكنهم لم يعترفوا بذنوبهم وما اقترفوا من جناياتٍ على الإسلامِ، بل أصرّوا دائمًا بأنّهم على الحقِّ وغيرهم على الباطل، قصدوا بذلك أهلَ التوحيد الخالِصِ ومَن نهاهم عن الشركِ من أئمّةِ المسلمينَ، واعتمدوا على تأويل المتشابهاتِ من الآياتِ كما أشارت لهم أنفسهم، كتأويلهم لقوله تعالى: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

زعمـوا »أن فـي ذلـكَ اشـارةً إلـى التوسُّـلِ بالأوليـاءِ والاستمداد من روحانيّتم والتشفُّعِ بهم« (المائدة/35)، كذلك تأويلهم لقوله تعالى: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ. زعموا أنّ في هذه الآيةِ الكريمـةِ اشارةً إلى اتخاذِ شيخٍ من الصـوفيةِ والقيـامِ برابطتِـهِ، وهي شكلٌ من أشكالِ العبادةِ عندهم.

هكذا تجرّأوا على تأويـل الآيـاتِ مـن كتـاب اللـهِ. فَأَمَّـا الَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ زَيْـغٌ فَيَتَّبِعُـونَ مَـا تَشَـابَهَ مِنْـهُ ابْتِغَـاءَ الْفِتْنَـةِ وَابْتِغَـاءَ تَـأْوِيلِهِ وَمَـا يَعْلَـمُ تَـأْوِيلَهُ إِلا اللـه، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَـا وَمَـا يَـذَّكَّرُ إِلا أُوْلُـوا الأَلْبَـابِ. فركّبـوا منهـا دينًـا سـمّوه التصوّفَ، ورتّبوا منها طرقًا متباينةً، فسـقوا بهـا النـاسَ السّمَّ في العسلِ.

هذا وليس من السـهلِ لأحـدٍ أنْ ينتبِـهَ إلى هـذه الحِيَـلِ المتمثِّلَةِ في التصوُّفِ، ولا أن يكافحَ هـذا الخطـر الـذي يتربّصُ بالمسلمينَ ليَجرِفَهـم إلـى جهنّـمَ وهـم يصلّونَ ويصومونَ ويتنقّلونَ ويتبتّلـونَ ويـذكرونَ اللـهَ!!! إلاّ إذا كان الله قد أقدَرَهُ على ذلكَ وألهَمَهُ رُشْدَهُ، وهداهُ إلـى الحقِّ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

فريد صلاح الهاشمي
Feriduddin AYDIN
ferid@maktoob.com
الطبعة الثانية -2003م.